# موت الدكتور كمال

هل هذا الوجه الذي أراه في المرآة وجهي ؟ لا ؟
فهو لم يكن يومًا أبيض مهما بلغ إرهاقي وتعبي.
مهلاً ، لأهدئ من روعي.
لأحاول السيطرة على نفسي. ما أفكّر به غريب. لا بد أنّ هذا نوع من الهستيريا.
كم هو مضحك أن تشعر بالرغبة في البكاء والضحك والغضب والحنان والشفقة.
لا بل هو شعور متعب لأنه يعبّر عن الانفلات العصبي. ربما هو الجنون وأنا في كامل قواي العقلية.

الحمد الله يا أمي أن لك جارة تعودينها كل يوم لتطمئني على صحتها فلم تحضري ساعة جنوني أو احتضاري.

منذ أسبوعين وأنا أتوقع جوابًا كهذا. لكن يبدو أن الحقيقة أصعب كثيرًا من التفكير بها. لأنك باستمرار تعتقد بأن تكون غير صحيحة.

انسابي يا عبراتي وأحرقي الوجنتين.
تشتّتي أيّتها الأفكار واضطربي في ضياع فما أحس به أكبر من تعبيري.
لماذا أنا يا رب ؟ لماذا ؟ هل انتهى كلّ شيء ؟ مشاريعي ، مخططاتي ، حياتي ، مستقبلي الذي أعدّ له وأفكاري التي جاهدت لإنجاحها.
وفتاتي ، فتاتي التي قررت أخيرًا الارتباط بها ولمّحت لها بذلك. فتاتي التي أبني أحلامًا كبيرة للزواج بها وغمرها بكل الحب والحياة.
هل هذا كلّه سراب. سراب. قصور على رمال. ستنقضُّ عند أول ريح ستهب بعد شهر، أو شهرين.
هل انهار كل شيء في لحظة وراح إلى الألم والموت.
الألم ؟ ذلك الشعور الذي يغرقك في الكآبة ويتعبك حتى الكفر يلم الجميع شفقة عليك. ليعطيك كل إرشادًا ونصحًا. أو يدر دموع من حولك ويلهب قلب محبّيك خوفًا ووجعًا. هذا الألم سيلازمني حتى النهاية.
ومن ثمّ الموت. ما أفظع هذه الكلمة. وما أقسى تجربتها. لم أنسى طعمها مذ مات أبي. كيف ستواجهه أمي وحدها؟ ألم وحزن فظيعين أغرقا أيامنا أشهرًا عديدة قبل أن نعتاد على غيابه الأبدي. وكم عانيت حتّى استطاعت أن تتمالك نفسها وتتغلّب على مصابها. أمّا الآن كيف العمل والإرادة ضعيفة والمصاب أكبر.

لا.. لا يمكنني تحمّل ذلك. عفوك ربي كنت دوماً مؤمناً بحكمتك مقتنعًا بإرادتك.
أما اليوم ! فلماذا يا رب ؟
الأيّام التي انتظرناها معًا هي وأنا، حان الآن موعدها. أن أتزوّج وأستقرّ. وأنجب الأطفال لتسعد بهم. دائمًا كنت أتردّد من التقدّم إلى زميلة تعجبني لأن أوضاعي غير مستقرّة والبيت لم ينته تأثيثه والعمل غير مستقرّ.
الآن بالذات كلّ شيء صار جاهزًا للبدء بمشروع حياتي يكمل المسيرة معي ومن بعدي، فهل ما قاله الطبيب اليوم يعني بترًا لكل شيء والسير إلى الآخرة من أول الطريق.
أمي... أمي تُراني حزين فقط لأجلها ؟ أم لأجل نفسي.
حزين لأنها ستفقدني أم لأنني سأفقدها.
هل حبّي لها وخوفي من حزنها هو ما يقلقني أم هو الموت ؟
أم هو الألم الذي يجتاحني كل ليلة ولا أريدها أن تحسّ به. يبدو أنّني فقدت الإدراك. سُلِبتُ الإحساس.
فظيع ما أحسّ به...
يبدو أنّني على وشك الموت. ما هذا الذي أحسّ به. لم تراودنهي أحلام مشاهبة. هل أنا ميت بالفعل ؟ أنا مستسلم لا يمكنني فتح عيني. لا يمكنني اختيار ما أفكّر به. مشاهد تتالى أمام ناظري، أحلام واضحة كل الوضوح. متباينة الأماكن.
أهي هلوسات من شدة الحرارة أم هي حقيقة ما يشعر به المحتضر. الذي يبتسم وهو يغمض عينيه.
تراني عشتها أم كان يجب أن أعيشها فإذا بها تمر أمامي بسرعة كالأفلام. لماذا أسمع من خلالها صوت أمي تستنجد تصلّي و تصرخ و تطرق أبواب الجيران.
أحلام.. أحلام.. هذا أبي في عزّ شبابه يلبس البدلة التي أحبّها عليه. يدعوني للاقتراب.

الله ما هذه الحديقة الرائعة الجمال. لقد وهبك الله ما تمنّيت طوال حياتك يا أبي. أن تعيش في مكان تحيطه الأشجار والأزهار بعيدًا عن البنايات العالية وازدحام السير.
أبي هل هذه الباقة لي أنا ؟ ما أروعها. عبيرها يعيد الحياة إلى النفس الميتة. شكرًا. شكرًا لك يا أبي. دعني أعانقك. فأنا مشتاق متشاق إليك. لماذا تبتعد. مهلاً. قدماي مسمّرتان لا يمكنني اللحاق بك. هو حلم ؟ نعم لكنّه لذيذ. خدر الألم في أعماقي. لا بدّ أنّه يدعوني إليه. أنا أموت إذن. صوت أمي يردد: لا تتركني يا روحي. يا حياتي.
ستبكين كثيرًا يا أمي. أعرف أنني سرّ حياتك. ما بيدي حيلة ليتني أستطيع فتح عيني أو رفع يدي لأبعد شبح الموت عني لكني مسلوب الإرادة والحركة. أحس بك ترجينهم ليعيدوا إلى الحياة. أيّة حياة هذه تريدين إعادتها إلي. حياة الألم المستمر.
وأغيب في حلم آخر. هل هذا هو الموت. ما هذا الحلم الآخر. لا أعرف لأنه في زمن لم أتبيّن ملامحه، فيه وجوه لا أعرفها. وأماكن لم أرَ شبيهًا لها كأنّها في كوكب آخر. أو في زمن يختلف عن زماني.

- طمئني يا بروفيسور.
- ماذا يا دكتور كمال.
- هل نتائج الفحوصات مطمئنة.
- أوه لا داعي للقلق، هو نوع من السرطان ينمو في منطقة الجيوب الأنفية. كل ما علينا فعله عو عملية بسيطة لاستئصاله ومن ثم علاد دوائي لمدة أسبوع، وبعد ذلك يكفي أن تشتري جهاز الكشف لتفحص نفسك كل ستة أشهر حتى نتأكّد من عدم ظهوره ثانية.
- وهل عملية الاستئصال هذه مستعجلة، لأن موعد زفافي بعد شهر واحد. للحقيقة لم أتوقع أمرًا جديًّا كهذا وإلا لما أهملته. لكن الألم يزداد يومًا بعد يوم بشكل غير محتمل.
- لا داعي لتأجيل زفافك. عمليتك تتطلّب مكوثك في المركز الصحي ثلاثة أيام فقط. وبما أنّك طبيب باستطاعتك الاهتمام بأمر العلاج والمحافظة على التعليمات. أتمنّى لك السعادة. فأنت مقدم على مغامرة لذيذة.
- إنها لذيذة أليس كذلك. هل تزوجت يومًا يا بروفيسور.
- نعم تزوجنا لمدّة عام كامل. كان عامًا رائعًا إلا أننا لم نستطع تمديد العقد لأن شريكتي كانت مرتبطة بعمل اضطرها للسفر بعيدًا. ربما نجدده يومًا ما.
- نحن تركنا مدة العقد مفتوحة. ونفكر بإنجاب طفلين. ألا تعتقد أن مرضي هذا له تأثير على حياتي وعلى أطفالي.
- تأثير على حياتك. لا أعتقد طالما أنك تنتبه لنفسك وتفحص جسدك باستمرار وتسأصل الورم فور ظهوره فلا تأثير له أبدًا. أما أطفالك فالمصل الجديد يحمي الأولاد من العدوى من جميع الأمراض الوراثية. لا تخف. يبدو أن أموركم جدية وحبكم كبير لتقرروا إنجاب الأطفال أيضًا.
- نعتقد أن الأمومة والأبوّة شعوران ممتعان مذهلان. وقد عشنا معًا أسبوعًا كاملاً في مركز بنك الأطفال نرعى الأطفال من أعمار مختلفة لنختبر أنفسنا فوجدنا ذلك رائعًا.
- أمّا نحن فقد ذهبنا لمدة ثلاثة أيام ولم نجد في ذلك راحة فقررنا عدم الإنجاب. إنه مسؤولية كبيرة جدًا لم نكن مؤهّلين لها.
- حسن. إلى اللقاء.
- موعدنا بعد ثلاثة أيام.
- سأكون في الموعد دون تأخير. إلى اللقاء.

وينتهي الحلم في أماكن رائعة الجمال، مع عروس بهية الحسن.
أهي أحلام السكينة الأبدية. وأنا مستسلم يا أمي. لا أدري ماذا دهاني. لا أستطيع الحراك. لا أستطيع إجابتك. محتار أنا. هل أنا حي أم ميت. الأحلام تعود. كلها حتى الآن لذيذة. أتركيني غارق فيها. أمي.

أمي تهزّني من جديد بقوة - أرجوك يا بني لا تتخلّ عني.
وأنا أبدأ حلمًا آخر. لا. لا أريد هذا الحلم. إنه حقيقي.
لماذا يعود إلي. لا أريد تذكّر ما حدث في عيادة الدكتور فهمي.

- صباح الخير آنستي.
- أهلاً دكتور كمال، كيف حالك، والله (ابن حلال) قبل ربع ساعة وصلت نتيجة التحاليل التي أحضرتها الأسبوع الماضي. أعتقد أن الدكتور فهمي يتوقّع زيارتك.
- نعم هل بإمكاني الدخول.

- معذرة، لديه مريض سيخرج في الحال، تفضّل استرح، يبدو أنّ الزكام حاد هذه المرة، عرفت إنك في إجازة.
- نعم للحقيقة أنا مصاب بوعكة. فقط جئت لآخذ النتيجة، أحس أن حرارتي بدأت ترتفع.
- هكذا أنت دائمًا يا دكتور كمال تسعى إلى شؤون محبيك وتنسى نفسك، يجب أن ترتاح، لأن الذين يحتاجونك كثيرون. ها هو المريض يخرج، تفضّل.
- صباح الخير، دكتور فهمي.
- أهلاً، أهلا بالزميل الصغير. كيف أحوالك.
- بخير الحمد لله.
- لا يبدو ذلك، خير إن شاء الله.
- لا، أمر بسيط بعض الزكام مع ارتفاع طفيف في الحرارة، لا تشغل تفكيرك، أنا ذاهب لأرتاح لم أقطع إجازتي كالعادة، وددت الاطمئنان على النتيجة.
- للحقيقة النتائج غير مطمئنة يا كمال. مريضل يحمل مرضًا خبيثًا بكل أسف. لكن كما تعرف علينا إجراء المزيد من التحاليل والزراعة للتأكد من نوع الجرثومة، حاول إقناعه بالمجيء لأخذ عيّنات جديدة. فهذه لا يمكنك أخذها بعيدًا عن المختبر. مذا بك هل أصبت بدوار..
- هه. لا لا شيء أبدًا. أقول هل أنت متأكد من التشخيص. عفوًا أقصد هل وجود المرض الخبيث أكيد.
- بالطبع فقط نريد التأكد من نوع جرثومته. فربما كانت من النوع المسيطر عليه،
ما بك هل يخصّك المريض إلى هذه الدرجة ؟ أنا متأسّف ؟ لكنّها الحقيقة ، انظر إلى الصورة هنا يبدو واضحًا في منطقة الجيوب الأنفيّة ، علينا التأكد أيضًا من عدم وجودها في مكان آخر من الجسم. وأظنّك تدرك أهميّة الوقت بالنسبة لهذا الموضوع.
- بالتأكيد. سأحاول ألاّ أتأخّر.
- أعرف أنّك لا تنسى أمورًا كهذه. حاول ألاّ تتأخّر فعلاً وإذا لم يقتنع مريضك أخبرني سأحاول معه. فقط أريد التأكد أنه غير منتشر في مكان آخر من جسمه. هل شكى لك أوجاعًا في أماكن أخرى من جسمه.
- يبدو أن جسمه كله يؤلمه.
- هذا فظيع، حاول أن تأتي به غدا على أبعد تقدير.
- سأحاول.
- إذهب الآن واسترح وفي طريقك مرّ على مريض الغرفة ١٣ لم يقتنع أنّك في إجازة.
وقبل أن يصل بي الحلم إلى مريض الغرفة ١٣. أسمع صوت أمي مجدّدًا.

- كمال حبيبي. أرجوك
- مهلك يا خالتي سيصحو. صدّقيني فقد انخفضت الحرارة تمامًا منذ ساعة. ارتاحي قليلاً. أرجوك.
- ومن أين تأتي الراحة يا مروان.
- كمال، أرجوك تماسك، ما الذي يدعوك إلى هذا الاستسلام. ليتك كنت واعيًا يا صديقي لتصرفت معك. تماسك من أجل والدتك. تكاد تنهار. أرجوك.
- أمي، أين أنت يا أمي.
- هنا يا حبيبي. هنا بجانبك. الحمد لله. الحمد لله. شدّة وتزول. نعم ستزول.
- أريد ماء.
- هكذا يا كمال تقلقنا أسبوعًا كاملا وتدوخنا ونحن لا نعرف لك حالة مستقرّة.
- ماذا أسبوعًا كاملاً.
- نعم يا جناب الدكتور. ما هذا الاستسلام للمرض. هيا تماسك. نريد أن نرتاح قليلاً.

أشعة الشمس ترسل خيوطها الذهبية عبر النافذة. فتبعث في الغرفة نورًا بهيجًا يوازي الفرحة التي عمّت. أما أنا وكأنني لم أرها منذ دهر وأجدها شاحبة.
- أمي أرجوك افتحي الستارة.
- الحمد لله. الحمد لله يا بني على سلامتك. قتلتني خوفًا عليك.
- أنا بخير الآن يا أمي. اطمئنّي.
- ما رأيك أن ترتاحي قليلاً يا خالتي فقد تعبت كثيرًا. أنا سأتولّى طلباته طالما اطمأننا عليه.
- حسن يا بني. ليعطيك الله القوة والصحة يا مروان. مذا كنت سأفعل بدونك.
- أعوذ بالله يا خالتي. العمل عمل ربنا. اتركيني فلي مع كمال حساب عسير.

- ما بك يا كمال. لم أعهدك ضعيفًا أبدًا. ما أرى اليوم كمال مختلف عمّن أعرف.
- وأنا أيضًا يا مروان. أواجه كمال لا أعرفه.
- لا بد أن هناك سببًا لذلك. مهما كانت الانفلونزا قوية فهي لا تجعلك أسيرًا لهذا الاستسلام المخيف. هل قابلت نهى بعد ذلك اليوم. هل هناك شيء.
- لا أبدًا فأنا لم أرها منذ ذلك الوقت.
- إذن صارحني يا صديقي نحن أطبّاء ونفهم على بعضنا.
- بماذا أصارحك.
- أعطيتك أكثر الأدوية قوة. ولم تستفق خلال ثلاثة أيام. وكأنّك ترفض الحياة. وتستسلم. ويداهمك ألم فظيع كل ليلة أحس به من ردود فعلك. أخبرني ما الأمر كدت أتّصل بالدكتور فهمي فلعلك أخبرته بشيء.
- الدكتور فهمي هل اتصل.
- ألا تستوعب ما أقول. صارحني يا عزيزي كي أساعدك. وإذا لم تفعل سأدعو نهى وأحدّثها عن عنادك ورفضك للعلاج.
- لا. لا تخبرها ولا تدعوها أرجوك. انسَ الموضوع.
- ماذا. أتتخلّى عنها من جديد. كل الفتيات في كفة ونهى في الكفة الأخرى. هل ستدعها تفلت من يدك كما فعلت مع كثيرات غيرها، لا تقل لي لم يحن الوقت.
- بل صار متأخّرًا.
- حجّة جديدة. وعذر مستحدث. من يسمعك يقول عمره ثمانون ويودّع الحياة.
- ربّما. وهل العمر بالسنوات يا صديقي ؟ العمر بالهموم.
- هيا دعك من الكلام الآن. يومين وتصبح مثل السبع حينها سأتفرّج عليك وأنت تدخل الحياة من أوسع أبوابها.
- الحياة ؟ أيّة حياة سأدخلها. الحياة ندخلها عندما نصرخ صرختنا الأولى. ونمارسها عندما نكبر سنة بعد سنة. بانتظار ساعة تعلن توقف كل شيء. ساعة قد يبطئ مجيئها أو يسرع. بحسب حظك. ربما حظك السيّء أن يبطئ مجيئها. أو حظك السيء أن يسرع. لا أعرف. أهو جيد أن تمارس الحياة بكل أفراحها وأحزانها وأيامها الطوال. أم تنتهي منها بسرعة بألم أقل وعذاب أخف. الأمر تختلط في ذهني ولا أعرف الجواب الصحيح. ما رأيك أنت...
- أنا مندهل من الفلسفة التي حلّت عليك مع الحرارة. صحيح ما يقولون أن بين الهلوسة والفلسفة خيط رفيع ويبدو أنك ملكته بهلوسة الحرارة التي أصابتك. كبّر عقلك ولا تفكّر. هل يمكن أن يكون الألم الذي تشعر به بهذه القوة. لا بد من إجراء فحوصات جدّية. سأتّصل اليوم بالدكتور فهمي.
يأتي الأصحاب ويغادرون. يطمئنون ويوزعون إرشاداتهم. يتحدّثون عن أمورهم كما اعتدنا دومًا أن نفعل. الصخب في الشارع يبلغ أشدّه ساعة الازدحام ويهدأ. النهار ينهي مهامه. والليل يزحف مكملاً دورة الحياة الطبيعية. وأنا جالس هنا. ماذا أفعل. أعدّ النجوم. أم أنتظر الأفكار السوداء تتصاعد إلى رأسي ناظرًا إلى أمي المسكينة. فأقضي الليل أندب حظّي كافرًا بإرادته تعالى وحكمته. ناسيًا كل ما تعلّمته وعلّمته وكتبته عن الأمل. الأمل... كلمة مبهمة اليوم. قبل الأمس (أي أمس) كانت تعني الكثير. قبل الأمس كانت ذلك الشعاع الذي تمسّكت بأذياله جيدًا ورحت أعدو في درب الحياة الطويل الشاق عامًا بعد عام. موسمًا بعد موسم. والأمل الكبير يشدّني فأنسى أنّه ليس لي سوى قميصين تغسل أحدهما والدتي الحنون لألبس الآخر، لم يكن يعني لي شيئًا أنني لا أستطيع مسايرة الزملاء في الملبس والمصروف بل أكتفي بما يعطيني والدي دون تذمّر، كان الأمل يغلّف كياني بهالة من القناعة لا ألدّ، أمضي وقتي ما بين الجامعة والدراسة. والاجتماع بالأصدقاء في مقرّنا الدائم في محاولة جادة لملء فراغنا بكل ما يفيد المجتمع. وكان أكثر ما يشد اهتمامنا زيارة المرضى. وعلى الأخص العجّز منهم وتقديم كل ما باستطاعتنا من خدمات قد تصل إلى إقامة الحفلات في دورهم الخاصة للترفيه عنهم.
بالرغم من أنني لم أختر كليّة الطبّ البشري بمحض إرادتي بل بضغط لا شعوري من تفوّقي وعلاماتي العالية وكنت أفضّل كليّة الهندسة إلاّ أنني لم أندم كثيرًا بل على العكس أحببتها لأنها فتحت أمامي مجالات واسعة لخدمة البشر. وهذا بحدّ ذاته عشق له في نفسي منزلة كبيرة.
رائعة تلك الأيام. كنت أتعب وأسهر كثيرًا كي لا أتأخّر عن دروسي بعد أن أقضي النهار كلّه في خدمة من هم بحاجة إلي. كنت سعيدًا جدًا. نعم سعيد بالعطاء الذي أقدّمه للناس. بالمحبة المرتسمة على وجوههم ساعة يرونني. بنبرات الشكر تختنق في صدورهم. بالشعور بالراحة الحقيقيّة عندما أعود مريضًا من أصدقائنا وأسهر بجانبه مراعيًا حاجاته التي قد يعجز عنها أهله. بالأمل أزرعه فيما بينهم لأنه الدواء الأساسي يلف المريض برداء من الفرح...
كان أملي أن أصبح اختصاصيًا ينقذ أكبر عدد من البشر. وها أنا اليوم بحاجة إلى من يزرع بين أوصالي بصيصًا من أمل. كان الجميع يدعون لي بالتوفيق والصحة ويقولون أن المرض لن يصيبني طالما أنا أبذل حياتي لخدمة الناس. وإذ بي أجد نفسي على عتبة الموت. أو ربما لدي بضعة شهور أقضيها في الألم. لماذا يا ربي ما الفرق إذن بيني وبين من قضى أيّامه في العربدة والإساءة والفشل. ألا يشفع لي خط حياتي الذي حاولت جاهدًا المحافظة

به على كل ما يرضيك وينفع من حولي. ألا تشفع لي المحبة التي غمرت كل جزء من حياتي وحياة المحيطين بي. ما الذي فعلت لأستحق الألم الذي أعانيه والذي ستعانيه أمّي أيّامًا طوال ؟
ما ذنبها ليحترق قلبها بعد أن عاشت حياتها أمّا مثالية محبّة ؟
لماذا... لماذا يا رب ؟
مريض الغرفة ١٣ يائس غير متشبّث بالحياة لأنه يعتقد أن الله يجازيه فقد قضى حياته وهو يسلب حقوق الناس ويكذب عليهم عدا الأشخاص الذين أودعهم السجن. غير معاملته السيّئة لزوجته وأولاده التي اضطرتهم للتخلّي عنه والسفر بعيدًا. يقضي أيامه في المستشفى منتظرًا الموت لأنه الراحة بعد الندم الحقيقي الذي يشعر به. ولم تنجح محاولاتي الكثيرة جدًا في إقناعه بالعدول عن الاستسلام للمرض والاتّصال بأولاده ليكونوا بجانبه ساعة محنته ومن ثم يعوضهم كل ما فاتهم.
كان يقول:
- يا دكتور كمال، أنا لا أستحق حتى نظرة الشفقة منهم. الموت جزائي الوحيد.
- ولكن يا سيد رمزي بإمكانك الآن بعد أن صحوت وعرفت أخطاءك أن تعوّض لهم ما فاتهم من حرمانهم منك.
- لم يبق من الحياة بقية لأعوّض لهم. حتى لو أرسلت لهم سيعتقدون أنّ هذه لعبة جديدة لآتي بهم مجددًا.
- بإمكاني أنا إقناعهم بالمجيء إذا كنت تريد. حرام أن تقضي أيامك وحيدًا.
- لن تطول هذه الأيام.
- وما أدراك. هذه مشيئة الرب لا يعرفها أحد.
- أما أنا فلا أستحقّ أكثر من عدّة أيّام.
- يبدو أنّك بدأت تكفر من جديد. سأعود إليك في الغد.
- ربّما لن تراني.
- كفاك تشاؤمًا، وافتح عينيك بحب للدنيا. سترى أولادك من خلالها وتتمسّك بالحياة وتقبل عليها بأمل.
- ليتني أملك مقدارًا صغيرًا من الأمل الذي تتكلّم عنه. لكن الوقت صار متأخّرًا. حتى الأمل لم أعد قادرا عليه. تريدني أن أتمسّك بالحياة من جديد وأدعو أولادي لأراهم وأتعلّق بهم ويتعلّقوا بي ومن ثمّ أرحل. هل هذا هو الأمل الذي تدعوني إليه ربّما هو جزاء أكبر لي أستحقّه. ولكن هم ما ذنبهم.
- هذا حقّهم أن يعرفوا مقدار التغيير الذي طرأ على أفكارك.
- دعني وشأني لن تفهمني أبدًا. ولا أتمنّى لك أبدًا أن تحسّ بما أحس من خيبة وتشاؤم. ليتني لم أنحرف. ليتني حافظت على حياتي كما تفعل. لما استحققت هذا العذاب.
- واجبك إذن أن تنبّه أولادك على الأقل. مع أنني أخالفك الرأي بأن مرضك هو جزاء من الله. الله قد يذكرنا بقوته ووجوده لكنه حنون يقبل التوبة الصادقة. له حكمة لا نعرفها من المرض والإصابة به.
هل تعتقد أنّ كل من يصاب بهذا المرض يكون سيء السيرة ويقاصص. ألا يمكن أن يصاب به إنسان طيب.
- لا أعرف. ربّما معك حق. لكنني بعد أن أصبت به وجدت أنّ الحياة لا تستحق أمرًا مما نسعى إليه فيها. ما هي الحياة إلا جسر للحياة الأخرى الأبدية.
- ما وجدته بعد مرضك يا سيد رمزي هو المعنى الحقيقي للحياة. لذلك فإننا بالمحافظة على أنفسنا في هذه الحياة نضمن حياة أبدية سعيدة.
- وأنا قد خسرت الاثنتين. ما اعتقدت أنّه الحياة وسعيت لأجله كل عمري وتركت أولادي لأجله لم يكن سوى أوهام خسرت من خلاله كل شيء حتى نفسي.
- الله كريم يا رجل. طالما أنت نادم على أفعالك فهو يسامحك بالتأكيد.
- ...

ها أنا مثلك يا سيّد رمزي أترك كل شيء وأرحل. أصارع الأمل وأستسلم. يبدو أن الذي يعاني يختلف عمن يتكلّم فقط. صعب جدًا أن تعرف أنك راحل بعد حين ويكون في قلبك أمل كبير. أو بعض من أمل.

ها أنا واقف اليوم على شرفة المنزل الذي طالما حلمت باستئجاره واعتقدت أنني عندما سأقف على شرفته سأكون أسعد إنسان في الدنيا. ها أنا واقف اليوم وهموم جمّة تثقل كاهلي. حلمت بهذا المنزل من أجل أمي. وها أنا أتركه لها وأرحل. كيف ستقف هنا من بعدي. مسكينة يا أمي. آه لو علمت الحقيقة. الحقيقة المرة التي دمرّتني قبل أن يطرق الموت بابي. آه يا أمي هذا العذاب المميت وأنا أحاول أن أبدو لك طبيعيًا.

- الله ما أطيب رائحة القهوة.
- تشربها بالصحة.
- أرأيت يا أمي ما ألذ فنجان القهوة هنا، نسائم الهواء تنعش القلب. ومنظر الشارع يشرح الفؤاد.
- الله يسعدك يا ابني، ويعطيك على قدر سعة صدرك. أنت محق. الجلوس هنا نعمة وأنا كلمت جلست على هذه الكرسي أرفع رأسي إلى السماء وأدعو لك بالتوفيق والصحة الدائمة وأن يبعد عنك هذه الآلام التي تهدّك وينزل الحصوة بخير. و.. هل أقول أم ستغضب.
- قولي عليك الأمان.
- أن تجد بنت الحلال التي تحبها وتحبك، أريد أن أفرح بك يا بني وبأولادك، كان البيت حجتك الدائمة.. واليوم بعد أن وفقنا الله إلى بيع دكان والدك المرحوم بسعر جيد وحصلنا على البيت الذي تمنّيت.. والحمد الله عملك جيد فماذا تنتظر.
- الله كريم يا أمي كل شيء يأتي في ميعاده.
- رأيتك تمشي مع نهى. والله يا ابني هي فتاة رائعة. لطيفة وجميلة ومهذبة.
- ماما. أشم رائحة الكعك ربما احترق.
- فعلاً. عن إذنك. لكني سأعود.
لا لا تتركيني يا أمي، فبوجودك فقط يبتعد شبح الموت. بوجودك فقط لا أجرؤ على التفكير به.. بوجودك فقط أتحرر وأعود طفلاً صغيرًا يحلم بالمستقبل والأمل. ليتني أستطيع أن أقول لك إبق إلى جانبي كي لا يبتعد عني الأمل. فهو متعلق بأطراف ثوبك كنت دائمًا مناهضًا لفكرة معرفة خبر المرض الحقيقي من قبل أهل المريض كي لا تسوء حالته النفسية من معاملتهم الخاصة الممزوجة بالشفقة والحزن. هل أشعر الآن بضرورة تغيير هذه الفكرة، فالشفقة ربما ترضي في نفس المريض شعورًا بالأهمية والمحورية. لا. ستكبّله بتصرفات غير طبيعية تدمي قلبه.
وبعد...
هنا بإمكاني ملء قدر كبير من الدموع أذرفها حزنًا وأسى وألم. بإمكاني تحطيم جماعة كاملة بكلمات تمزّق الكيان أخرجها تشاؤمًا ويأسًا ولكن ما الفائدة. هل بإمكاني إضافة يوم واحد إلى عمري. وماذ يعني يومًا واحدًا.
كيف لا أخجل من نفسي وأنا أقضي أيامي يائسًا من رحمته تعالى. غير آبه بما قاله الطبيب من ضرورة إجراء الفحوص التالية. كيف استطاع ضعفي البشري أن يتغلّب على إيماني وصبري. أنا الذي كنت أرى صبر أيوب وإيمانه مصدر إلهامي. لقد طلب الله من أيّوب أولاده جميعًا ولم يبخل ولم يتذمّر. كان مؤمنًا إلى أبعد حد. صابرًا صبرًا حقيقيًّا. وأنا أدّعي الإيمان. والصبر. وأستسلم.
أين المنطق الذي أقنعت بواسطته كل من رافقتهم درب آلامهم. كلماتي ما زالت مكتوبة في ذلك الكراس لماذا أخاف فتحه. هل أنتظر تشيجعًا.
قدري لا يمكنني اختياره. ولكن أليس لي الخيار لتحديد مسيرة أيامي المتبقية. ها هي ليلتي اليوم تمرّ دون ألم شديد. لكنني كدت أقتلها باليأس والاستسلام . سأرحل فليكن. ماذا أترك من بعدي هو المهم. أمي المسكينة. هي الأخرى ستواجه قدرها فلأترك لها ذكرى طيبة من شجاعتي وقوتي وإيماني.
هو كلام أقوله. يدل على المنطق والقوة. لكن الإحباط الذي أشعر به أقوى من أي كلام. ليته ينقلب في نفسي إلى نهم وجوع رهيبين لاستغلال الأيام واللحظات حتى الرمق الأخير. والألم.
هل يترك الألم للمنطق مكان. هل يفسح له مطرح. والموت واقف بالمرصاد كالصياد. يقذف كل بارقة أمل برصاصة.
ليكن. ليكن الألم مميتًا لكنّي سأواجهه وأتحدّاه. نعم سأطلب مساعدة أصدقائي. سأتذكّر كم أنّ وضعي أفضل من غيري بكثير. فأنا قد أمّنت لوالدتي معيشتها وسكنها وليس لدي زوجة أو أولاد يظلموا من بعدي ويذوقوا طعم اليتم المر.
سأتذكّر أن حولي أحبّاء كثر استطعت أن أترك في نفوسهم إحساسًا بالمحبة. فلأتابع سأذهب غدًا إلى الدكتور فهمي ولتكن النتيجة ما تكون. ربما يكتشفون الدواء الشافي لمرضي.
وأحسّ ببعض الأمل وأنا أذكر الدواء والشفاء فتستسلم عيناي إلى غفوة عميقة تأتي بالأحلام من جديد. وتأخذني إلى عروسي الحسناء لأجد نفسي وقد أنهيت العملية بكل نجاح. تحيطني السعادة بذراعيها وتغمرني بحنانها فأحس بانتعاش وخدر لم أشعر بهما في حياتي. أدفع عمري ثمنًا للبقاء معها.
لكن الأحلام كما تأتي دون إنذار تذهب. وأركض في جميع الأنحاء بحثًا عن عروسي أطرق الأبواب. أفتحها إذا كلها تؤدي إلى غرفة أمي. أهرب منها لأطرق أبوابًا أخرى بحثًا عن عروسي الجميلة. مجدّدًا تقودني الأبواب إلى غرفة أمي وجموع من الناس يحتشدون حولها. أجسامهم صغيرة أما عيونهم فقد انتفخت وتورمت وصارت شديدة الاحمرار من البكاء. حتى صارت عيونهم أكبر من وجوههم. أكبر من أجسامهم.
أمي جالسة على كرسيها. بيدها صورتي تنظر إليها دون أن تكون في عينيها دمعة واحدة. لكنها تلبس السواد. أحدهم مات. هذا أنا.

اختلطت الأمور علي لم أعد أعرف أيّهما الحلم وأيّهما الحقيقة. هل أحلم ؟. يبدو أنني في عالم آخر. طريق طويل... وكأنّه نفق تقودني قدماي فيه.
أمشي ، وأمشي ، ألحق شعاع نور يبدو لي من بعيد يكبر كلما اقتربت. يكبر. أكثر. يزيد ضياؤه و يغمر المكان. أقترب أكثر. أكثر.
عالم فسيح يغمره الضياء البهي. أصوات تسابيح وترانيم تملأ المكان. ملائكة تسبح لها وجوه رائعة الجمال. فائضة النور. تبتسم. لا أستطيع تمييز قسماتها لكنها تبتسم. روائح عطرية تنتشر كيفما تلفت.
جمال. روعة. نور. ضياء.
ربما مت فعلاً.
لا توقظوني.
لم أعد أخاف الموت.
سأنتظره.
سأنتظره.
فقط سأحرص أن يغمرني هذا الضياء إلى الأبد.

هناء كرم

وداعًا... حبيبتي بانتظاري
ورود تزيّن الأرجاء، ابتسامات تنير الوجوه، سعادة تتوهّج في القلوب... جميع الموجودين فرحون.. منهم من يصفّق.. ومنهم من يتفرّج.. ومنهم من يشارك في حلقة الدبكة الكبيرة يضربون أقدامهم في الأرض ضربات متوازنة مع إيقاع الفرقة الموسيقيّة فتلهب الحماس في النفوس... كيف لا واليوم عرس فاضل... حبيب الجميع... أقرباء، أصدقاء، زملاء عمل... أما الأهل فهم هناك..... بعيدون.
لم يتمكّن من إحضار أحد منهم عدا مجدي.. وقد حضر بعد جهد جهيد.
الأكف تصفّق.. والأغنيات تتوالى... تزداد حماسًا ويشتد التصفيق... ومجدي واقف بينهم معهم وليس معهم... جسده هنا كفّيه يتضاربان بانتظام ويصدرا صفقة مماثلة للأنغام... عيناه تتابعان الراقصين والمصفّقين والمتفرّجين... أمّا أين عقله وقلبه وريته فهي هناك... وسط النور والفرح هنا يفكّر بالظلام المخيّم هناك والحجارة التي تملأ الجيوب والمحاجر...
فرح بعرس أخيه.. نعم.. إلا أنّه لا يتمكن من شق ابتسامة حقيقية عن شفتيه.. وتهرب الدماء من عروقه.. كيف استطاع أن يتركهم هناك ويأتي ليشاركهم احتفالاً كهذا حتى ولو كان هذا الاحتفال عرس أخيه الكبير الحنون الذي بذل شبابه ليعمل ويقدّم لهم كل ما يلزمهم... كيف بإمكانهم إقامة الأفراح...
ويضرب كفًا بكفّ... أكثر وأكثر.. فقد تذكّر ما أتى من أجله... يجب أن يتجلّد.. أن يصبر.. ويتلفّت ليرى هل يراقبه أحدهم... وجوههم متشابهة.. ابتساماتهم متشابهة... لا يعرفهم ولا يهمّه أن يعرفهم... قبل مجيئه كان متلهفًا للحضور... أعتقد أنّه بمجرّد وصوله سيتجمّع كثيرون حوله ليسألوه عن أخبار الانتفاضة.. نفسية الشباب... معاناتهم... ما يحتاجون... وما يخططون... لكنهم خيّبوا أمله... أحس بداخله قطبًا سالبًا يجعل الاقتراب منهم والالتصاق بهم أمرًا مستحيلاً... فقط هاتان العينان الجميلتان تراقبانه باستمرار.. تستمعان لكل ما يقول... وتنخفضان باستحياء كلما رآهما.
- ما بك تجلس بمفردك يا مجدي... هيا إلى الداخل... الحفل ليس لأخيك وحده...
- بل له وحده... لا أحد في الداخل يعرفني، ولا أعرف أحد، ما الفرق في بقائي هنا
- لا.. أغالطك صحيح أن معظمهم لا يعرفونك شخصيًا.. لكن أخاك قد حدّثهم عنك كثيرًا وجميعهم بشوق للتعرّف عليك... لقد طبل وزمر يوم استطعت الحصول على الموافقة للخروج من الضفّة والمجيء إلى هنا.. لم يكن ينقصه إلا أن يعلن ذلك في الصحف والمجلات.
- تلك الإعلانات المشابهة للنعي.
- ماذا...
- لا عليك.. عفوًا اتركني.. لا أريد أن أعكّر صفو الحفل.. إنه فرح أخي لكن صدّقني لا أستطيع تمالك نفسي... لا أتمكّن من الانخراط في فرحكم... والله لا أدري كيف باستطاعتكم أن تفرحوا وتبتهجوا وتنفقوا كل هذه النقود لإقامة أعراسكم.
- ولكن، ما أدراك ماذا فعلنا ونفعل.. لا يغرنك فرحنا واحتفالاتنا الآن... إلا أننا امتنعنا عن ذلك سنة كاملة دعمًا للانتفاضة... لم نستقبل في الأعياد.. لم نحتفل بالأعراس... وجمعنا مبالغ كبيرة... لم نقصر أبدًا... لكن الحياة ستستمرّ.

- أنتم تعتقدون ذلك... أزرتم الانتفاضة... امتنعتم عن الاحتفالات... وبعد.
- هيا.. هيا دعنا من هذه المناقشة الآن وادخل معي إلى الصالة.. سيفتقدك أخوك.. لا تعكّر مزاجه، اليوم فرحه.. يكفيه أنّه لم يستطع أن يرى ضحكتك منذ وصولك أرجوك اضغط على نفسك..
- لا بأس.. لا بأس.. اسبقني أنت.. سأستمع إلى البرنامج.. لن يطول الأمر.. ربع ساعة فقط وألحق بك.
- ما قصة هذا البرنامج.. وتشديدك على سماعه كل يوم... البرنامج يذيع رسائل من الأهل في الأرض المحتلّة وأنت لم يمضِ على وصولك سوى أسبوعين هل تعتقد أن أحدًا سيرسل لك شيئًا خلالها.
- نعم أنا مضطر لسماعها.. أرجوك.
- هي حبيبة إذن.. أخبرني.
- هه.. حبيبه..
- إذن اتركه وهيا ندخل.
- أرجوك لا تفقدني أعصابي ودعني.. سألحق بك.
- حسنًا.. سأرسل من يحمل حجّة أقوى منّي لإقناعك.
ويضع السماعة على أذنه حتى لا يسمع الضجيج ويصغي بانتباه شديد...
أنا... أهدي سلامي إلى أهلي.....
أنا..... أهدي سلامي إلى .....
يرفع السماعة دون أن تتغيّر ملامح وجهه.. لم تصل الرسالة... لم ترد الإشارة بعد عليه أن ينتظر... لا بأس... الأفق بعيد أمامه... يمتد نظره دون أن يصطدم بكل الجدران التي تقابله... يصل إلى منزله هناك... أو بالأحرى منزل صديقه... المقرّ الرئيسي حيث يتّفقون لتحديد الموعد... يتساءل تراهم ماذا يفعلون... يبدو أن الساعة لم تحن بعد... عليه أن ينتظر... يبدو أنّه لن يستطيع رسم الفرح على جبهته ليفرح أخاه الذي تعذّب كثيرًا في استخراج إذن الزيارة (فأنت لتخرج يلزمك إذن ولتدخل يلزمك آخر).. ليحاول.. نظر إلى نفسه في المرآة المعلّقة في الممر الذي يفصل الصالة عن الحمام... فوجد وجوم الدنيا كلها مرتسم على محيّاه.... عاتب نفسه وكاد أن يكلّم صورته قائلاً: لا هذا كثير... لن يفهموك... لن يحسّوا بك... عليك أن تمثّل قليلاً... وجومك لن يفيد... سيطلبون مبررًا وأنت لا تملك الإفصاح عن السبب الذي يقض مضجعك... لذلك اتركه بعيدًا... تجاهله... ليس من السهل فعل ذلك لكنك مضطر... دعه وادخل إلى الصالة....
- أنا فاتن... هل تذكرني التقينا في منزل العروس.. أرسلوني لإقناعك بالدخول..
- كنت داخلاً..
- هيا إذن.. مع أنني أوافقك الرأي تمامًا في كل ما قلته للعم.. لندخل الآن ونتكلّم فيما بعد.
وبدخوله يشتدّ حماس الشباب...
- هيا... امسك الدبكة معنا.. تابع إيقاعنا..
- لا دعوني خارجًا.. أنا مسرور لرؤيتكم ترقصون.. ليجعل الله أيامك هناء وسعادة يا أخي..
- شكرًا.. شكرًا.. تعال.. تعال امسك يدي يا سندي.. هيا حرّك أقدامك على الإيقاع مثلنا... لا تفسد اتّجاه الأقدام..
- دعوني خارجًا أفضل لي ولكم.. صدّقوني أنا مسرور جدًا برؤيتكم فرحون.. سأصفّق لكم
- لا التصفيق وحده لا يكفي.. يجب أن تشاركنا...
ويكاد يعلو صوته صاخبًا... سنتين كاملتين بل أكثر وأنتم تتفرجون... وتصفّقون لنا لماذا قبلتم بهذا الدور لأنفسكم ولا ترتضونه لي الآن... يخمد صوته.. لن أفسد فرح أخي... ليفعلوا ما يشاؤون... مهمتي بانتظاري ويجب ألاّ أفسد أي شيء...
ويضرب كفّيه بشدّة ليسيطر على الغضب الذي يغلي في داخله.. يفرحون.. يرقصون..يزغردون.. يعتقدون أنهم يعيشون.. وهناك في الأفق البعيد... حيث قلبه ووجدانه الفرح له طعم آخر.. الزغاريد تطلق في مناسبات مختلفة تمامًا.. الأعراس.. أية أعراس تقام.. والأرض تسلب شبرًا بعد شبر... والوطن يختنق يومًا بعد يوم...
ويضرب كفّيه بشدة أكثر... ويشقّ الابتسامة بعنف.. ويتجوّل بنظره على الموجودين.. من بعيد يلمح فاتن تنظر إليه.. يبادلها الابتسام ويشيح بنظره عنها... ثم في غفلة منها يهمّ بالانسحاب... حين يربت على كتفه أحدهم بلطف:
هل تسمح لي بكلمة في الخارج.
- أنت لا تعرفني.. وأنا لا أعرفك لكن أشعر أن طريقنا واحد..
- ماذا...
- باختصار وحتى لا ينتبه أحد لحديثنا.. يقول لك أبو الحبيبة لا تنتظر الرسالة من المذياع.. لأن الخطة رقم ٥ فشلت.. وقد استلمت الإشارة.. اعمل على الخطة رقم ٨٨.. وكن حريصًا جدًا.
- وكيف أتأكّد من كلامك..
- رقم رسالتي ٥٩ وإسمي إم الحبايب.
- صدقت والله وأرحتني.. تعال لنكمل معًا فرح أخي.
- مبروك أعتذر.. يجب أن أذهب.. أمور كثيرة تنتظرني.. ليكن الله معك يا أخي وليكثر من أمثالك.

- لقد حدّثنا أبو الحبيبة كثيرًا عنك وعن جماعتك... كنا نخطئك دومًا ونقول له يجب ألا تفكّروا بالمجيء إلينا بل أن تعملوا هنا على حثّ الناس.. لكن يبدو أن العمل هناك فقط.. هنا كل لاه بنفسه وليس على استعداد لسماعك.. وأن تبرع لك اليوم قد يفتّش عن حجة غدا.
- المهم أن نحافظ على حماسنا... فبدايتنا هذه لا تنجح إلا بالاستمرار.. والله معنا
- أهلا عامر.. ماذا تفعل هنا..
- أ.. أ.. أهلا سمر، كيف حالك.
- عرفت من فاتن أنك مسافر.
- صحيح.. وصلت منذ نصف ساعة فقط، لذلك جئت للبحث عن فاتن.. أين هي..
- هل تعرف مجدي..
- أعتذر فأنا مستعجل جدًا.. وتعبان.. تشرّفنا بمعرفتك سيد مجدي..
- مع السلامة يا...
- عامر.. اسمه عامر.. أين تعرّفت عليه...
- أتركينا من عامر الآن وحدّثيني عن نفسك لا يبدو أنك في غاية السرور ألم يعجبك الحفل
- إذا قلت لك رأي ألا تزعل..
- ولم أزعل..
- لأنه حفل زفاف أخيك..
- لا قولي رأيك بكل صراحة...
- الحفلة حلوة لكنها على نطاق ضيق جدًا.. أقصد لا يوجد غير الأهل.. كنت أتوقع ضيوفًا أكثر.. تعرف! وجود وجوه جديدة يثير الحماس.. ويشعرك بالإثارة..
- الحماس والإثارة كيف..
- تلفت النظر.. تتعرّف على أشخاص جدد.. تخلق علاقات جديدة.. هي دورة الحياة وليس هناك فرصة أجمل من الأعراس.. ألست معي في ذلك...
- طبعًا.. طبعًا.. عن إذنك يبدو أن أخي يبحث عني...
وعلت الأصوات في الداخل... العريس يدعو إلى العشاء.. أين الضيف... أين الأخ الضيف.. يريد أن يرفع الغطاء عن خروف الوليمة على شرف الأخ الضيف. أين أنت يا مجدي...
- رأيتك تتحدّث مع سمر... كيف وجدتها..
- سمر.. من سمر...
- ابنة خالتك يا ولد هل تريد أن تنكر أنك كنت تقف في الخارج معها.. هل أخطبها لك.. ونجعل الفرح فرحين...
- لا.. لا يا أخي لقد فهمتني خطأ.. سمر... ها..
- لماذا... إذن أبحث عن غيرها.. الصبايا كثيرات.. ما رأيك بفاتن صديقة عروستي.. فتاة مثقفة وطيّبة جدّا ثمّ هي تحمل أفكارًا مشابهة لأفكارك تمامًا...
- فاتن... على كل حلا أنا لا أفكّر بهذا هنا..
- هل هناك من ينتظرك هناك...
- نعم يا أخي حبيبتي هناك بانتظاري..
- لم لم تخبرني عنها... ما سامها.. هل أعرفها..
- أعتقد أنّك تعرفها ولا تعرفها... أعني كنت تعرفها... هي الآن غير ما كنت تعرفها.. أحبها.. أعشقها... تضاعف اليوم شوقي إلى احتضانها.. إلى تقبيلها والتمرغ في حجرها.. مكاني هناك.. بين ذراعيها..
- مهلك، مهلك.. ماذا جرى لك..
- ما جرى لي كثير... لن تفهمني أبدًا...
- مبروك يا عريس... مبروك يا عروس...
ويتوالى المهنّئون...
- مجدي أريد أن أتحدّث إليك قليلاً.. ويهمس العريس في أذن أخيه..
- إذهب يا عم.. إذهب.. بدلاً أن تذهب أنت للتعرّف عليهن.. ها هن يأتين إليكم
اذهب مع فاتن.. طبيبة متخرّجة منذ عدّة أشهر فقط..
- أهلا فاتن..
- هل بإمكاننا الخروج من هذا المكان...
- ماذا هناك... خير..
- خير إن شاء الله..
في الخارج أما النافذة المفتوحة...
- مجدي هل تعرف أخي عامر...

- ...
- رأيتكما تتحدّثان...
- يبدو أنكِ مراقبة ماهرة.
- من يسمعك يعتقد أنه لا هم لي إلا مراقبة الناس مع أنني لا أريد الموت همًا.
- ما الأمر الذي تريدينني لأجله.
- طالما أنك تعرف عامر ولم يسبق لكما التعارف أمامي لدي شعور أنكما تعملان معًا.
- ...
- أعرف أنّه ليس باستطاعتك إجابتي إذ لا بد أن تكون كتومًا مثله... صدّقني أحس بذلك..
- إذن...
- قبل أن أطلب منك المساعدة أود أن أحدّثك عن نفسي هل تمانع...
- أبدًا تفضّلي.
- منذ أن استشهد والدنا... قرّرت أن أدرس الطب وأتطوّع في منظمّة الصليب الأحمر الدولية لتكون خدمتي فعّالة بجانب أبناء بلدي... وكذلك عامر اختار لنفسه طريقًا لا أعرف عن تفاصيله الكثير لكنّي مطمئنة عن اختياره... بالنسبة لي فقد وفّقني الله وتخرّجت طبية بدرجة ممتاز منذ عدّة أشهر... حين برزت المشكلة الكبرى وهي أن جدّي لم يوافق على ذهابي إلى هناك بحجة أنه ليس لي أحد هناك بعد زواج أمي.. وأنا لا أريد أن أجد عملاً هنا وأعيش بشكل روتيني مميت وقلبي هناك مع الانتفاضة.
- ألم تشاوري عامر...
- بالتأكيد فعلت.. لكنه لا يسمح لي بمشاركته عمله وأسراره هنا.. ويقول لي انتظري حتى تمر الشهور الستة ويكون بإمكانك الذهاب مجددًا إلى الضفة في زيارة وهناك إبحثي لنفسك عن حل.
- ولماذا الانتظار ستة شهور...
- لأن جدّي يسمح لي بالذهاب لزيارة أمي كل سنتين.. لا تتساءل لماذا أسألك أنت بالذات، قلت لنفسي أنت تعيش هناك وتعرف كل شيء عن البلد فربما كان باستطاعتك مساعدتي... وأخفضت عينيها بكل دلال إذ أحسّت بجرأتها..
- ليت بإمكانك الذهاب فالشبيبة هناك بحاجة إلى طبيبة تحمل حماسك تداوي جروحهم..
- والعمل... أنا محتارة.
- أليس لك عم أو خال هناك بإمكانك اللجوء إليه ويتكفّل الوصاية عليك تجاه جدّك..
- ليس لي إلا خالي وجدّي لا يوافق على بقائي عنده لأن ابن خالي شاب... أتعلم يا مجدي لقد مللت الحياة هنا... معظم الفتيات والشبّان حولي يعيشون فراغًا حياتيًا قاتلاً لم أتمكّن من الانخراط فيه... همّهم اللبس والحفلات وأفلام الفيديو واللهو... ومن كان منهم ملتزمًا وعاقلاً تراه ضاع في دوامة الحياة العملية غير المنتهية لتأمين مستقبله المادي غير آبه بشيء آخر... وأنا أحس بالعمل الفدائي يغلي في دمي مع أنّني أدرك مخاطره ومستعدّة لها وجدي يريدني عروسة في برج عاجي..
- إذن اجعلي أمنيتك وأمنيته في خندق واحد... وليكن برجك العاجي هناك... حينها تحقّقين كل ما تحلمين به... فالشبان عندنا جميعهم متحمّسون.. جميعهم مندفعون.. ولا شكّ ستجدين من تشاركينه دربه بهذا الحماس الذي أرجو ألاّ يخبو أبدا...
- أتعتقد ذلك... ليت الله يسمع كلامك.. ويحقّق حلمي.. وأجد رفيقًا لدربي أساعده في نشاطه.. أدفعه بحماس.. أداوي جروحه وجروح رفاقه.. أركض وراءه لأمدّه بالحجارة..
- هذا هو الحل الوحيد يا فاتن... أتمنّى لك كل التوفيق...
- هل سأراك عندما أحضر إلى هناك... وهل ستعرّفني على رفاقك...
يتطلّع بعمق إلى هاتين العينين اللتين تقولان الكلام كله... أتراه يتمنّى أكثر من هذا في شريكة العمر... لكن.... لا مكان للاختيار... والوطن ينزف والجرح كبير.
- لو كنت هناك سأفعل بالتأكيد... فقط أقول لك اصبري وتدرّبي جيّدًا إلى أن يحين موعد سفرك... وستجدين حلاً مناسبًا... هيا لندخل الآن أظنهم افتقدونا...
ويمسك بيدها لحظة ويشدّ عليها... تنظر إليه... تحاول أن تفهم... يهرب من عينيها قائلاً.
- ستعرفين كل شيء في الوقت المناسب... اعذريني الآن.
- أين كنت يا مجدي كل هذا الوقت مع فاتن... قل لي هل أعجبتك...
- النعم والخير من الجميع... يبدو أنها فتاة ممتازة.
- لنتّكل على الله إذن.
- قلت لك عروسي هناك... بانتظاري... فقط أستأذنك بأن أغادر في الغد.. وأن أتمّ عرسي فور وصولي..
- فاجأتني يا مجدي... أبدًا لم تذكر لي شيئًا من هذا القبيل..
- كنت مشغولاً يا أخي ولم أرد أن أشغلك أكثر... لا تهتم فأنا باستطاعتي تدبّر أمري لم أعد صغيرًا...

- يبدو ذلك... فقد كبرت في غفلة مني..
- مبروك يا عريس... مبروك يا عروس... بالرفاه والبنين.
- شكرًا يا سيّد رمزي...
- ماذا.. يبدو أنك نسيت العروس ورحت تتحدّث مع أخيك..
- لا .. لا.. سنتابع حديثنا فيما بعد.
وانطلقت الزغاريد.. وعزفت الموسيقى زفّة العروسين... فقاما يدًا بيد... للصعود إلى غرفتهما في الفندق... ليبدأ شهر العسل... خلفهما الأقرباء والأحباء يصفّقون.. ويطلقون الزغاريد ويتهامسون ويضحكون...
- أتمنّى لك كل الخير يا أخي... وأنتِ يا زوجة أخي العزيزة هو أمانة بين يديكِ...
- في عيني... العقبى لك.
ألف مبروك... ووداعًا.
- قل إلى اللقاء غدًا...
- ألم أقل لك يجب أن أغادر...
- هل صممت على ذلك...
- نعم يا أخي.. أرجوك.. حضرت فرحك واطمأننت عنك... وداعًا.
وتعانق الأخوان... عناقًا كاد يفتّت قوة مجدي وعزمه على الرحيل... نظر إلى فاتن وهي واجمة تراقبه... تتابعه... وشدّ على أخيه أكثر... لا إنه قوي...
في هذه اللحظة فقط أحسّ أنه ذاهب... ذاهب إلى غير عودة... هو عناق الوداع... هو عناق الفراق...
وداعًا يا أخي... وداعًا حبيبتي بانتظاري... أنت لم تعش بيننا... خرجت باكرًا لم تجرِ في عروقك تلك النار التي تغلي في دمي...
وداعًا يا أخي.. لم تنم مع خلاياك تلك الأحجار التي تتهاوى كل يوم من منزل لتشرّد عائلة أو أكثر... كنت بعيدًا دائمًا... لم تحس بالذل الذي نذوقه كل ساعة وكل دقيقة... فقط كنت ترسل المال... وتسأل عن الأحوال وتنتظر الرسائل المطمئنة...
لم تكن يوم طفح الكيل ولم يعد بإمكاننا السكوت.. يوم خرجنا من مخابئنا أقوياء أقوياء.. اعذرني يا أخي... لأنني لم أخبرك عن مخطّطاتي.. أعذرني لأني لم أبح لك بسرّي.. فهو شرفي.. وأنت من طلب من أمي أن تعلّمني احترام الشرف لأن أبانا رحمه الله كان يعتبره قمة الأخلاق ولم يكن أو تكن مخطئًا ابدًا...
وداعًا يا أخي... وسامحني لأنني لم أستطع أن أبقى بقربك... أستمع إلى الأخبار وأتفرّج.. وأصفّق.. وأحزن.. سامحني لأنني استخففت في داخلي أفكارك وطريقة معيشتك.. لكني ذاهب عني وعنك... عرسي سيكون شرفًا لك...
وأنت يا فاتن... وداعًا... وداعًا مصيري بانتظاري والقلب لا يتّسع حبيبتين.
- ما بك تزغردين يا أم سمر... هل خطبت سمر.. ماذا.. أتزغردين أم تبكين أمرك عجيب... لماذا أرسلت في طلبي سريعًا.
- أرسلت أمك خبرًا مع جماعة وصلوا اليوم من بيت ساحور تقول زغردي يا أم سمر زغردي يا أم سمر زغردي فقد استشهد مجدي مفجّرًا بنفسه في سيارة جنود وقتل معه خمس إسرائيليين وجرح عشرون... كان ذلك في طريق عودته إلينا من عندكم... لم نره لكننا أقمنا عرسه البارحة.
هناء كرم.